

الفصل الأول

أسباب القصور في منهج التفكير العربي

الاعتراف بالخطأ هو أولى خطوات الإصلاح؛ وتجنب الهروب من مواجهه الحقائق هو الوسيلة المثلى لوضع خطط الإصلاح الجبرية علينا أن نعترف بحقيقة بديية، شئنا أم لم نشأ، لقد بات معروفاً عن العرب على المستوى الإنساني العالمي، وفي جميع مراكز البحث الاجتماعي العالمية، أنهم على اختلاف مللهم ونسلهم، أنهم ما زالوا قومًا متفرقين، تجمعهم جاهلية التعصب والعصية والاستبداد السياسي والفكري ونزعات التسلط والفوقية، ولم تتأثر عقولهم وهمهم بما وصل إليه العالم من حولهم من تقدم مذهب في جميع العلوم الإنسانية والعلمية والاجتماعية، لأن غاية ما يسعون إليه هو استهلاك ما ينتجه الغرب من كل شيء حتى ملابسهم اليومية.

إن خير دليل على أن العرب يتبعون غالبيتهم في جهلهم وجاهليتهم، أن البيئة العربية بيئة طاردة للعلماء والإصلاحيين والشرفاء، وبرز من هؤلاء كثير من العلماء العرب الذين نبغوا في جميع العلوم في مراكز ومعاهد البحوث وجامعات الغرب، ونالوا أرفع الجوائز والأوسمة العالمية والدولية في الطب والفيزياء والجيولوجيا وعلوم الفضاء وغيرها من العلوم السياسية والاقتصادية وأصبحوا علامات في المسيرة الإنسانية نحو التقدم، ومنهم من ملك سلسلة من الفنادق العالمية، ومنهم من ملك أكبر المحلات التجارية في بريطانيا، ومنهم من وضع نظام التأمين الصحي للولايات المتحدة الأمريكية، وكثير منهم لا يتسع المجال لذكره، وأغلب هؤلاء العلماء كانوا عصاميين لم ينالوا شيئاً من أموال النفط العربي ولا منحوا شيئاً من الجامعات التي خرجوا منها، بل نالهم من الإحباط من أقرانهم ورؤسائهم ما دفعهم إلى الرحيل إلى الغرب، وكاتب هذه السطور هو مثل حي للذين اغتربوا وتركوا وطنهم الأصلي مصر عندما وصل الإحباط إلى أقصاه، والظلم إلى مداه، وها أنذا أعود مرة أخرى إلى وطني الحبيب محاولاً كسر دائرة التخلف وقيادة ثورة التنوير الفكري خاصة بعد ثورة ٢٥ يناير التي

قامت ضد الظلم والبغي والاستبداد.إننا كمغتربين، وبالرغم من نجاحاتنا في الغرب، فإن معظم المغتربين من العلماء والمفكرين العرب لم يتذكروا لأوطانهم، ويحاولون بكل جهدهم أن تستفيد أوطانهم الأصلية من أبحاثهم العلمية وتطبيقاتها، هؤلاء العلماء من المسلمين والمسيحيين العرب نزعوا من عقولهم هذا التبذل العربي البائس، وأخذوا بالأسباب وطرحوا وراء ظهورهم العصبية العرقية والمذهبية وأخذوا بلب الدين وجوهره، فنالوا درجة الإيمان التي تبدو واضحة في أفعالهم وسلوكياتهم وأحاديثهم، فالعالم منهم لا يقارن بألف سياسي عربي فاسد، وألف عسكري مستبد بشعبه، وألف شيخ من شيوخ السحر والشعوذة، وألف شيخ من شيوخ الفضائيات المتأسلمين والذين لا يمتون إلى صحيح الدين بصلة، وألف مفكر من مفكري السلطة وفناني ركاب الاستبداد والذين يسمون أنفسهم بالمبدعين، وألف شاعر من شعراء الأمراء والسلاطين والحكام، لأن العالم المؤمن الصادق خير من ألف عابد، وليس له بين العرب قائمة ولا مقام ولا مكان إلا الهذيان باسمه وعلمه ذرًا للرماد في العيون.

لقد ذكر الكاتب الجليل عبد الحميد الأنصاري في مقالة قيمة عن نقد العقل المسلم أن من تداعيات الصدمة الحضارية بالغرب المتفوق بروز تساؤلات فكرية كبيرة، لماذا تفوق الآخرون علينا؟ لماذا تقدموا وتحلفنا؟ ما عوامل الخلل؟ كيف النهوض؟ تعددت الإجابات عبر قرن ونصف بتعدد اتجاهات المفكرين ومشاربهم، بداية بالرواد الأوائل: الطهطاوي، الكواكبي، الأفغاني، محمد عبده، وكانت الصفة الغالبة عليها، الصفة الدفاعية ضد الآخر المتغلب. ففي مطلع القرن الماضي أصبحت التساؤلات أكثر إلحاحًا وشكلت تحديًا كبيرًا للفكر العربي وتطلبت استجابة مختلفة، وبرز في سماء القرن العشرين جهود كواكب لامعة، أبرزها المشروع الإصلاحية للإمام محمد عبده (ت ١٩٠٥)، الذي تمحور حول إصلاح نمط التفكير الديني، وفي الثلث الأخير من القرن الماضي ظهر مفكرون أصحاب مشاريع فكرية متكاملة (تيزني، حنفي، أركون، الجابري، زكي نجيب محمود، فؤاد زكريا، محمد جابر الأنصاري، نصر حامد أبو زيد، وغيرهم). كانت أولى الإجابات تركز على أن علة التخلف ابتعاد الأمة عن دينها، فلا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، أو ما يعرف بالعبارة المسيسة الشهيرة «الإسلام هو الحل»، بينما رأت الإجابة الثانية أن التأزم السياسي المتمثل في غياب الديمقراطية، هو الداء المزمن بسبب عجز العرب عن الاتفاق على آلية سياسية تضمن الانتقال السلمي للسلطة، وذهبت إجابة ثالثة إلى أن نظامنا التربوي والتعليمي هو العلة في الإخفاق، ورأت إجابة رابعة أن تخلف العرب يكمن في قصورهم العلمي والتقني لأن التحديات التي واجهتهم

خلال القرون الخمسة الأخيرة كانت تقنية، ولم تجد استجابة سليمة منهم، وهناك من رأى في الاشتراكية العربية حلاً، واستراح قطاع كبير إلى تحميل الاستعمار مسؤولية التخلف، واتجه آخرون إلى أن العلة كامنة في العقلية العربية لافتقادها الروح النقدية والنظرة التاريخية، كما يقول الجابري في مشروعه الفكري الضخم «نقد العقل العربي» ولعل الجابري هو الذي بلور وطرح مصطلح «العقل العربي» في ساحة التداول الفكري بدءاً من ١٩٨٤، فراج وانهر به كثيرون حتى بان زيفه، فالعقل بمعنى القدرة الذهنية واحد لدى البشر؛ ولذلك أضفت لعنوان هذا الكتاب «ثورة العقل العربي والإنساني»، فالعقل وهو أعدل الأشياء قسمة بين البشر كما ذكر (ديكارت)، فلا يوجد عقل عربي أو إسلامي بإزاء عقل غربي أو مسيحي، ولا يمكن أن يكون للعرب عقل مختلف عن عقول بقية الشعوب، لكن الشعوب الإنسانية تختلف في طرق تفكيرها وفي فاعليته هذا التفكير في مواجهة التحديات؛ وقد رصد كثير من المفكرين جوانب القصور في منهج التفكير العربي في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية بسبب النزعات المؤثرة في كفاءته:

١. النزعة إلى الماضي

العقلية العربية أسيرة الماضي المجيد؛ تعيد إنتاج مقولات السابقين وتبحث في الماضي حلولاً لمشكلات الحاضر

٢. النزعة الذكورية

العقلية العربية محكومة بإرث ثقافي، ينتقص من المرأة ويؤمن بسمو الرجل على المرأة.

٣. النزعة التقديسية للتاريخ

ينتقى من التاريخ اللحظات المضيئة؛ ويغيب ألف عام من الصراعات والانقسامات والظلام.

٤. النزعة الاقصائية

الفكر العربي فكر إقصائي للآخر اعتقاداً بأنه يملك الحقيقة المطلقة.

٥. النزعة الارتيازية في الآخر

تحتل نظرية المؤامرة والتآمر العالمي علينا المساحة العظمى من تفكيرنا.

٦. النزعة التمجيدية للذات

وتعظيم محاسنها في مقابل الانتقاص من الآخر والمغالاة في سلبياته.

وعلى الجانب الإسلامى؛ فقد قام الكثير من الفقهاء، وشيوخ السلطة على مر عصور الخلافة الإسلامية بدءاً من الدولة الأموية حتى الآن بعملية تغييب طويلة الأمد للعقل العربى؛ هذا العقل الذى هو أعظم نعمة بعد الإيمان؛ فالدين - عموماً - جاء لتحرير العقل لكن ورثة الدين حجروا عليه بتضييق نطاقه فى الحفظ والتلقين، وبتقديس السابقين من البشر؛ ومعروف أن تقديس عقل غيرك معناه إلغاء عقلك، وبالتخوف المفرط من الوقوع فى الخطأ الاجتهادى؛ وقد ظهرت هذه الانحرافات فى أعراض رئيسية؛ من صورها النفور من الحوار مع المخالف؛ والتعميم فى الأحكام؛ والحكم على النوايا؛ واتهام الآخر؛ والانشغال بالشعارات وشخصنة المبادئ والأفكار، والاهتمام بالماضى على حساب الحاضر والمستقبل؛ والتفكير الأحادي؛ والمبالغة فى إبراز مزايانا فى مقابل إبراز عيوب المخالفين؛ وعدم تقدير العلوم الحديثة؛ والخلط بين الدينى والبشرى والثواب والمتغيرات.

موقف الحركات الإسلامية من أزمة العقل العربى

الحركات الإسلامية، وإن استطاعت إخراج الدين من نطاق الإصلاحات الجزئية إلى نطاق الإصلاح العام، فإنها عاجلت الأمر بطريقة ساذجة سطحية؛ بتقرير أحكام جامدة على الحياة الحديثة وبمحاولة السطو المسلح على السلطة لإقامة بما يسمى حكم الله؛ فأفسدوا الدين وأفسدوا السياسة معاً؛ وهى وإن جددت التفكير السياسى الدينى؛ فإنها من الناحية العقلية والمنهجية بقيت تقليدية متعصبة؛ تقدس التراث وتعادى الفكر الإنسانى؛ كما أن هذه الحركات الإسلامية تمتلك الكثير من المفاهيم المشوشة على سبيل المثال: اختلاط مفهوم الجهاد بالعنف؛ وطغيان مفهوم الحكم الإسلامى؛ ثم أخيراً تقسيم المجتمع إلى جاهلى وإسلامى. إن هناك الكثير من المظاهر التى تؤكد الأزمة التى يعيشها العقل العربى وخاصة المسلم؛ النظرة الخاطئة إلى تاريخ العالم باعتباره صراعاً بين الحضارات؛ لذا علينا أن نصارع الحضارة وتعطل عمل العقل خوفاً على تحمل الوحي؛ ثم شيوع وسائل تخدير العقول مثل: حشو النشيد؛ الوصاية على الآخرين؛ شيوع سياسة ردود الأفعال؛ النظرة الأحادية والسطحية؛ عدم التمييز بين تعاليم الدين واجتهادات الفقهاء؛ إهدار مقاصد الشريعة؛ السلبية العامة تجاه الفكر الإنسانى؛ ورفضه بحجة أن عندنا الكمال؛ والتشدد فى طقوس ومظاهر الدين على حساب الأخلاق. لقد

بدأ التدهور في العالم العربي والإسلامي في القرن الخامس الهجري، وسيطر على معظم مظاهر الحياة، وأنتج الجمود الفكري؛ التقليد المذهبي؛ نبذ العلوم الطبيعية انعدام الاستقرار السياسي؛ وذلك يرجع إلى التقديس غير الواعي للتراث الذي كلف المسلمين ٥٠٠ عام من الجمود والانحطاط والظلام الفكري، إن الله فرض قدسية دينية ولا قدسية لاجتهادات البشر؛ ولكن ما قام به ورثة الدين إنهم سجنوا الدين وسجنوا الإنسان بإخضاعها لتراث القرون السابقة وإرهاب المخالفين بسيف «الإجماع» فأعدم المجتهدون وتغلب المقلدون وكثر التعصب. إن التقديس المفرط للتراث وإلى كل ما له صلة بالدين قد طغى على العقل الإنساني العربي؛ إن من عيوب العقلية المتدينة غير الراشدة وغير المتعلمة استعدادها للتقديس بغير حساب؛ ومع التقديس يكون التسليم المطلق؛ ومن عيوبها نتيجة لما سبق؛ قابليتها الكبيرة للتشدد في الدين بغية التظاهر بالالتزام المفرط به؛ وهذا يؤدي إلى ضعف النظر وعدم البحث ووزن الأمور بالطريقة الصحيحة؛ لذا فإننا إذا أردنا تحرير هذه العقلية؛ فيجب تحريرها نفسياً من التقديس المفرط وإلا استمر العقل العربي المسلم بلا إبداع.

ولكى نتعمق في جذور مشكلة ثقافة التخلف الاجتماعي التي أثرت على العقل العربي والإنساني؛ علينا أن نبحر قليلاً في دراسات التخلف الاجتماعي العالمية من منظور سيكولوجية الإنسان المقهور؛ والتي سبق أن ألمحنا إلى الظروف المحيطة بالإنسان العربي من استبداد وظلم وقهر لمئات من السنين أثرت بالعقل على تكوينه الفكري والعقلي؛ علها تزيدنا إيضاحاً في أسباب قصور العقلية العربية.

إن الدراسات العلمية الحديثة، التي قامت بدراسة حالات التخلف الثقافي والفكري لأفراد بعض الشعوب، كانت تركز جهدها الأساسي في فحصها لمشكلة التخلف على الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات قيد الدرس؛ وأهملت بشكل واضح أهمية دور الفرد في هذه العملية، وبالتالي أهملت دراسة العقلية التي تقف وراء الكثير من ظواهر التخلف، وبالنتيجة أهملت دراسة الذهنية المتخلفة وخصائصها؛ والدور الحاسم الذي يلعبه الفكر في تقدير الواقع؛ وتكوين الأحكام. وهكذا؛ فإن أغلب الدراسات التي تمت على حالات الأفراد في المجتمع العربي لم تكن تمس جوهر ظاهره تخلف العقلية العربية، بل إنها أسهمت في تكريس التخلف ولم تسهم في خلق وعي نوعي يساعد على إصدار أحكام صحيحة أو قريبة من الصحة على مشكلة التخلف العربي بأطرافها الثلاثة وهي: التخلف كواقع اقتصادي، والواقع الاقتصادي في علاقته بواقع التخلف الاجتماعي؛ والواقع الاجتماعي كمارسات وأفكار

ودور الذهنية المتخلفة التي تغذى هذا الواقع المتخلف؛ وتقاوم بما أوتيت من قوة تغييره نحو الأفضل؛ باعتباره لا يناسب الوضع المريح الذى تجذ فيه العقلية المتخلفة الطمأنينة والراحة الزائفة؛ غير التواقة إلى خوض مغامرة التغيير. إن مقاومة التغيير والركون إلى الراحة الذهنية الزائفة، والقهر والاستبداد المحيط بالعقلية العربية وشعوبها قد سبب ضررًا بائنًا لهذه العقلية. وأنا أرجو من القارئ الفاضل أن يتنبه، ويدرك حجم الضرر الذى لحق بنا كبلدان وشعوب تعرضت للكثير من عمليات القهر والهدر؛ وبالتالي أصبحنا يقهر بعضنا بعضًا؛ ونمارس كل أنواع الهدر لطاقتنا وقدراتنا وكرامتنا الإنسانية ونتهادر فيما بيننا؛ الأمر الذى سبب لنا عجزًا لا يمكن للعين الفاحصة أن تخطفه بأى شكل من الأشكال. إننى ككاتب أهداف من كتابتى هذه الدراسة فى الإسهام فى خلق وعى نوعى للآليات التى تتحكم فى قهرنا وهدر طاقتنا وكرامتنا الإنسانية؛ وتسهم فى تخلفنا وعجزنا عن حل مشكلاتنا والدوران فى حلقات مفرغة ومضلة فى محاولاتنا المتكررة للخروج من أزمتنا.

إن معظم علماء الاجتماع يصفوا العقلية أو الذهنية المتخلفة بالتخبط والفوضى والعشوائية؛ وسوء التخطيط؛ والارتجال؛ ويعتبرها من ملامح التخلف الأساسية وبالتالي تصبح ملامستها للواقع سطحية؛ عاجزة عن الغوص فيه والسيطرة عليه؛ ما يؤدى إلى خلق عقبات معرفية جديّة تعطل خطط التنمية؛ وتعطى المبررات الذهنية لمقاومة التغيير؛ لقد قسم أحد العلماء دراسة للعقلية المتخلفة فى مرحلتين؛ الأولى: رصد الملامح والخصائص الأساسية للعقلية المتخلفة؛ والثانية: الأسباب والقوى المولدة لها؛ والتى تغذيها؛ وتعمل على استمرارها. فإذا أردنا رصد الخصائص الذهنية للتخلف؛ فعلينا أن نربط الظواهر التى يتم رصدها والكشف عن الروابط التى تربط بينها من خلال تصنيف منطقي وواقعي؛ وسوف نجد أن هناك خصائص ذهنية منهجية من ناحية؛ وخصائص ذهنية انفعالية من جهة أخرى.

ويؤكد علماء الاجتماع على أن الخصائص الذهنية المنهجية للعقلية المتخلفة ترتبط باضطراب منهجية التفكير؛ وقصور التفكير الجذلى؛ أما الثانية فتختص بتداخل العوامل الذاتية بالعقلانية فى النظرة إلى الوجود. لقد شدد العلماء على النظر إلى العقلية المتخلفة كجزء من ظاهرة كلية؛ وهى ظاهرة التخلف؛ التى تتميز بالدينامية والتماثل؛ بعكس ما يعتقد الكثيرون بأن ظاهرة التخلف ثابتة وهشة.

لقد تناول العلماء بإسهاب الخصائص الذهنية المنهجية للعقلية المتخلفة وقسموها إلى قسمين: وهما:

١ - اضطراب منهجية التفكير.

٢ - قصور التفكير الجدلى.

وكلتا الحالتين تتميزان فى نظره بصعوبة السيطرة الذهنية على الواقع بكل تبدياته، وهذا العجز أو القصور لا يقتصر فى مجال واحد بل يشمل العجز إزاء ظواهر الطبيعة والحياة؛ والعلاقات؛ وما يبدو عليها من غموض؛ وتناقض؛ وتداخل؛ بحيث تبدو له أقوى من طاقته على الاستيعاب؛ لذا يتوسل الإنسان المتخلف عادةً الوسائل السحرية والخرافية لسد هذا العجز أو النقص؛ ويسمى أحد العلماء هذه الحالة: «الخواء ذهنى»؛ ويضيف إليها أحياناً كلمة «الزائف». والإنسان المتخلف فى هذه الحالة لا يقبل على الدنيا بخطى ثابتة؛ بل يبدى التردد، ويتجنب وضع إمكاناته موضع الاختبار خوفاً من الفشل، ويميل أحياناً إلى التعسف هرباً من عجزه فيطلق الأحكام المسبقة؛ والآراء المتسرعة؛ دون أن يحشم نفسه عباء الجهد الفكرى الضرورى لتحليل الواقع. وبالتالي؛ طغيان مشاعر السيطرة على الواقع من خلال الحذف أو ما يسمى «بالفهلوه».

ويعرف العلماء اضطراب منهجية التفكير التى ذكرت أعلاه بسوء التنظيم ذهنى فى التصدى للواقع؛ حيث تتقرب الذهنية المتخلفة من الواقع وتتعامل معه دون خطة مسبقة ذات مراحل منطقية واضحة سلفاً؛ فيقع صاحبها فى الفوضى والعشوائية والتخبط؛ كما تجده فى الغموض والحيرة؛ ما يجعله يلجأ إلى التمنيات بخروج سحرى من المأزق. إن المناقشات التى تتم من منهجية التفكير المضطربة غالباً ما تخرج عن موضعها الأصلى؛ وهكذا تطرح قضايا جديدة هى بدورها تصبح منطلقاً للانحراف فى أمور جانبية؛ وهكذا تصبح المناقشات مضیعة للجهد والزمن دون الخروج بتصویر واضح للمشكلة وحلولها، بينما تنقيد العقلية المنهجية عادة بخطوات فى بحثها لأیه مسألة؛ يبدأ بتعريفها بدقة ووضوح؛ ثم تحديد الهدف؛ وبحث المشكلات التى تتضمنها؛ وتقسيمها إلى أساسية وثانوية مع تباين العلاقة بين الفئتين. ثم يأتى دور جمع المعلومات والمعطيات المتوافرة، وفرزها لتحديد الحل الأنسب تبعاً للهدف المقرر؛ ومناقشة كل حل على حدة؛ ولاتأخذ المسائل غالباً هذا التسلسل المنهجى الواضح؛ لكن الضامن فى هذه الضرورة هو الاسترشاد بإطار منطقى يمكن العودة إليه؛ بعكس الذهنية المتخلفة التى تنحو التخبط؛ وتقفز من مرحلة أولية إلى مرحلة نهائية فتعجز عن متابعة السير؛ وهكذا تفتقد الحلول التى تطرحها هذه العقلية إلى المثانة المنطقية؛ وتغطى فشلها غالباً باختلاق أذدار وتفسيرات غير منطقية. هذا التخبط وفقدان المنطقية لا يقتصران على الفئات غير المتعلمة

فقط؛ بل تنتشر مثل هذه الظواهر حتى بين فئات المتعلمين. إن التعليم في حد ذاته في المستويين الجامعي وحتى الدراسات العليا لا يشكل في الدول المتخلفة ومنها العربية طبعاً ضمانة لإيجاد نخبة متعلمة تطرح حلولاً عملية لمشكلات مجتمعاتها، تلخيصاً لكل ما سبق؛ فإن أحد أهم أسباب قصور العقلية العربية هي معاناتها من قصور في الفكر النقدي؛ وتحيز بشكل تلقائي نظراً لتدخل العوامل العاطفية والانفعالية في التفكير.

هذا العقل والذهن المتخلف هو دائماً يكون قطعياً في تحيزه؛ فإما أن يكون مع أو ضد أمر ما؛ وهذا يؤدي بدوره إلى القصور في الجمع بين الأوجه الموجبة والسالبة؛ بين المميزات والعيوب؛ ومثل هذا الجمع فقط هو القادر على تلطيف الأحكام وزيادة قدرتها التمييزية، وهذا يؤدي بدوره إلى انعدام المثابرة التي تنعكس على التفكير في أمر ما في حدود زمنية؛ سرعان ما يداخله التعب والتشتت؛ وينطلق صاحب مثل هذه العقلية بحماس كبير؛ ولكنه يفقد حماسه بالسرعة نفسها. وبسطحية ملحوظة وهذا مانراه في دور أفعال القاده والمسؤولين العرب في تناوهم لقضايا أوطانهم. إن هذه العقلية لا تتحمل الجهد الطويل النفسى؛ لذا يصعب على الذهنية المتخلفة الدخول في البحث المتخصص الذى يحتاج إلى المثابرة والجهد الدءوب.

وهذا يؤدي بدوره إلى تحكم ثقافة الخط والخطوة لإمكان الارتقاء بالجهد الذاتى البعيد المدى؛ لذا يسود طابع تدبير الحال والبحث عن المناسبات التى تحمل إمكانات النجاح السريع. إن السمة البارزة للعقلية المتخلفة هى انعدام الدقة والضبط فى التصدى للواقع وفى تقدير الأمور، كل شئ يبقى على مستوى التقدير الإجمالى والانطباع العام وعرضه للهاوية والتراخى والتساهل حتى الاستهتار؛ ويمكن ملاحظة ذلك فى مختلف أشكال الالتزام تجاه الآخرين. والدقة والضبط فى التعامل مع الآخرين يدل على مدى السيطرة على الوجود وتحديد المسؤوليات والالتزامات كما أن العقلية المتخلفة عاجزة عن التخطيط؛ وتنتظر إلى الواقع بشكل تحزبى زمانياً ومكانياً؛ فمن الناحية الزمنية يتم التركيز على الحاضر مع انسداد الأفق المستقبلى؛ ولا تبقى المشكلة فى حدود عدم القدرة على التخطيط؛ بل تصل إلى انعدام الرغبة فى التنفيذ.

إن العيش فى الحاضر وانداد آفاق المستقبل تعتبر إحدى الخصائص النفسية للوجود المتخلف؛ فالذى فقد السيطرة على مصيره يستحيل عليه التخطيط للمستقبل؛ ويظل أسير الظروف المحيطة به؛ لأن التخطيط عبارة عن وسيلة للسيطرة على المصير؛ وتوجيهه وجهة ملائمة للإنسان. وهكذا يتقلب الإنسان المتخلف ما بين التشاؤم والتفاؤل تبعاً للحظة الراهنة؛ يفرط فى تفاؤله أمام الظفر العابر؛ ويفرط فى تشاؤمه أمام الانتكاسة الآتية. أما مكانياً:

فالإنسان المتخلف تجزيئي؛ يعجز عن النظر إلى أبعد من دائرته الضيقة لأنه عاجز عن الشمول وعن استشفاف آفاق بعيدة؛ ووضع خصائص المحيط المباشر في أطر أكثر اتساعاً وشمولية. إن قصور التفكير الجدلي هو لب الذهنية المتخلفة؛ فهي قطعية؛ وحيدة الجانب؛ تتبع مبدأ السببية الميكانيكية؛ عاجزة عن العمل تبعاً لمبدأ التناقض. تنطلق الذهنية المتخلفة من مبدأ العزل والفصل؛ الشيء قائم بذاته؛ منفصل عن بقية الأشياء والظواهر؛ حكمها تقويمى نهائى؛ وتطلق صفة الثبات على الأشياء. بعكس المنهج الجدلي الذى يؤمن بالدينامية والضرورة؛ وبالعلائق السببية بين الظواهر، كما تنطلق الذهنية المتخلفة من مبدأ السببية الميكانيكية بين الأشياء ذات الاتجاه الواحد بمعنى سبب معين يؤدي إلى نتيجة معينة؛ التأثير يأتى من السبب ويؤدي إلى نتيجة.

اللغة العربية وأثرها على العقل العربى

لقد أثارت أحدث الدراسات التى قام بها أحد الكتاب المصريين التابعين لوزارة الثقافة المصرية. جدلاً شديداً عندما اعتبر أن اللغة العربية الفصحى التى نرزم إليها أحياناً بلغة سبويه لم تكن في يوم من الأيام لغة تفاهم وتعامل يومية بين أهلها إلا في فترة وجيزة جداً وفي رقعة صغيرة في شبه الجزيرة العربية؛ وقد توقع الباحث للغة العربية بالانقراض كاللاتينية؛ وإحلال اللهجات المحلية مكانها إذا لم تجدد نفسها في القريب العاجل بعد أن أصبحت قيداً يكبل العقل العربى، ويغل طاقتنا الخلاقة؛ وتحولها إلى سجن يحبس العقل والأفكار ويلجمها بين جدارنه الحديدية؛ كما أنها تسهم في حرماننا من الانطلاق إلى الآفاق الرحبة التى يفتحها العلم الحديث.

لقد استشهد هذا الباحث وآخرون بتجربة بلاد الغرب عندما تأثرت بالفرنسية أثناء فترة استعمارها؛ وأفادها ذلك كثيراً بعد الاستقلال؛ وانعكس في حالة لانتعاش الاقتصادية والفكرية والتكنولوجية التى تعيشها هذه الدول؛ ولذلك اعتبر الباحثون أن الإنسان العربى يعيش حالة من «الشيزوفرينيا» بسبب التناقض الداخلى الكبير بين الفصحى التى يقرؤها في الكتب ويسمعوها في الخطب؛ وبين العامية التى يتعامل بها يومياً في حياته العادية لدراسة اللغة والتراث، وسيكون ضليعاً في اللغة قوياً؛ لكنه سيفنى حياته فيها وينقطع عن العالم وينعزل بين كتب التراث أو أنه يتخصص في أحد فروع العلم والمعرفة ويسهم في تقدم المجتمع وازدهاره؛ وبهذا فستقطع علاقته باللغة وقواعدها بصورة شبه تامة وهو الغالب؛ ويضيف هؤلاء الكتاب وغيرهم أننا يجب ألا نناق أنفسنا ونعترف بأننا جميعاً تصعب علينا اللغة العربية كلغة دارجة في حياتنا اليومية؛ وذلك لجمودها وصعوبتها؛ فبداية من التلاميذ الذين يكرهون حصّة اللغة العربية؛ ونهاية بباقي أفراد المجتمع لم يعد أحد يُقبل على دراسة اللغة العربية أو استخدامها، وقد طالب الكثير من المستشرقين من قبل بإعادة تنقية اللغة من القواعد التى رأوها صعبة على عقلية

الإنسان العربي العادي؛ وبذلك يجب التخلص منها؛ حيث اعتبروا أنه من أوضح الأدلة على معاناة قواعد اللغة العربية لسنة التطور، وجود المثنى حتى القرن الحادى والعشرين؛ وهوي زيد اللغة تعقيداً وغير مقبول في عصر التكنولوجيا؛ ومن المشكلات التي رآها الكثير من الدارسين للغة العربية، والتي علقوا عليها أيضاً وزعموا أنها تنفر دارسى العربية منها جمع المؤنث السالم؛ وتصريف الفعل الناتج عنه مثل نون النسوة؛ فلماذا نميز النساء؟ ولماذا تعطى العربية وحدها - دون لغات العالم - للمرأة خصوصية وميزة ! لقد شن بعض علماء اللغات الإنسانية هجوماً على ثراء اللغة العربية في كلماتها ومترادفها؛ وأبوا إلا أن يقارنوها بالإنجليزية والفرنسية فقد هالهم أن تصل كلمات اللغة العربية إلى مليون و ٩٠٠ ألف كلمة؛ في حين أن الإنجليزية لا تزيد عن ٢٥٠ ألف كلمة؛ والفرنسية ٣٠٠ ألف كلمة؛ واعتبروا ذلك تعقيداً أكيداً في اللغة؛ وليس كما يظن البعض دليلاً على ثراء اللغة؛ فهم لم يفهموا جدوى تعدد معانى اللفظ الواحد؛ واعتبروا أن ذلك غير موجود في اللغات الأخرى؛ وهو من قبل الاستعراض اللغوى الفارغ في اللغة العربية دون فائدة؛ فما معنى أن يكون هناك ٣٥ معنى لكلمة عين؟ وطالبوا بإلغاء ذلك؛ والتعبير المباشر والسريع والمتوازي مع إيقاع الحياة سواء اتفقنا أو اختلفنا مع هذه الآراء.

علينا أن نعترف أن عندنا مشكلات جمة في اللغة العربية؛ وأساليب تدريسها وتبسيطها، كما أنها فعلاً من الناحية الواقعية أصبحت في كثير من الأحيان لا تواكب سرعة إيقاع العلم والتطور الحياتى السريع لعالم أصبح يقفز قفزات سريعة نحو المستقبل؛ مع ثورة معلوماتية فائقة السرعة. إن حل ذلك يأتي من وضع برامج للتجديد والتبسيط اللغوى مع المحافظة على أصالتها؛ ف قوة اللغة العربية تأتي من كونها لغة القرآن الكريم؛ كما أن اللغة تابعة للفكر؛ فالإنجليزية قوية اليوم لا لأنها لغة قوية؛ وإنما لأن فكر أصحابها متقدم؛ وكذلك كانت اللغة العربية في عصور ازدهار الحضارة العربية الإسلامية؛ ولذلك فأنا أعتقد أن العيب ليس بصفة كلية في اللغة؛ ولكن في تخلف أهلها، كما سبق أن ناقشنا ظاهرة تخلف العقلية العربية وأستشهد هنا بالأستاذ الدكتور محمد عابد الجابرى أحد رواد المشروع الفكرى العربى وصاحب موسوعة تطوير ونقد العقل العربى؛ فقد صرح أن اللغة العربية بُنى على خاصيتين اثنتين وهما: لا تاريخيتها وطبيعتها الحسية؛ وإنما بناء على ذلك؛ لا تتوفر على الأدوات والآليات الضرورية للتفكير... ومن ثم فهي ليست لغة ثقافة وفكر». إن هناك دراسات كثيرة في السنوات الأخيرة قام بها العديد من الأكاديميين العرب والغربيين حول أزمة اللغة العربية ومشكلة التخلف المجتمعى العربى؛ وتقوم معظم هذه الدراسات على افتراض أن أزمة اللغة العربية هى جزء من مشكلة أهم؛ هى مشكلة التخلف؛ ومالم تبحث مظاهر التخلف في بنية العقل العربى؛

فعلينا أيضًا أن نضيف مظاهر التخلف في العقل العربي تبعًا لآخر الدراسات التي نشرت في مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها؛ وقد لخصت هذه المظاهر في خمسة أصناف رئيسية وهي:

- ١ - الجزمية الفكرية؛ ويتفرع عنها الحسم في تقييم الأمور؛ وعدم تقبل النقد.
- ٢ - عاطفية التفكير؛ ويتفرع عنها الآنية والارتجال؛ واتباع الهوى وغياب العدل.
- ٣ - التفكير المتمحور حول الذات أو ما يسمى بتضخم الأنا؛ يتفرع عنها الانتهازية والاستغلال؛ والديكتاتورية.
- ٤ - التواكل الفكرى؛ ويتفرع عنه: الاستسلام للتفكير التأمرى؛ وإيقاع اللوم على الآخرين؛ والاستسلام للواقع وعدم التضحية؛ وعدم المبالاة بأهمية الأمور؛ والنزعة التقليدية وغياب التفكير الإبداعي (الإمعية).
- ٥ - سطحية التفكير؛ يتفرع منها قصر النظر؛ وغياب العمق؛ وصفرية الانطلاقة؛ وإهمال الكيف والاهتمام بالكم؛ والتفكير التشخيصى؛ إن كل هذه المظاهر السابقة يعانى منها العقل الجماعى العربى؛ ولها انعكاساتها السلبية الخطيرة على واقع اللغة العربية كلغة مجتمع يعانى إجمالاً على مستوى الفرد والمجتمع والدولة. دعونا نتذكر المقولة الشهيرة «كلما اتسعت حضارة الأمة؛ وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها؛ وترقى تفكيرها؛ وتهذبت اتجاهاتها النفسية؛ فرضت لغتها؛ وما يهمننا في هذا الاقتباس قوله بالعلاقة الطردية بين نهضة اللغة؛ وتنمية التفكير والاتجاهات النفسية لدى أهلها. وهو أمر يدعونا لتشخيص بنية العقل الجماعى العربى؛ واكتشاف مظاهر التخلف فيه كى يتسنى لنا البحث عن أسس علمية يمكن أن تكون منطلقاً لنهضة عربية حضارية.

مظاهر التخلف فى العقل العربى؛

١ - الجزمية الفكرية

إن شخصية العربى دائماً ما توقن أنها تعرف أكثر من غيرها؛ وأنه شخص غنى عن الاستشارة؛ فلا يحتاج إلى رأى آخر؛ ومتيقن من صحة رأيه، فلا يقبل المراجعة أو النقد؛ وأنه متعلق تعلقاً عاطفياً برأيه لأنه من خصوصياته فهو جزء منه؛ ولذا فإن أى نقد يوجه إلى رأيه يفسر بأنه اعتداء على شخصيته؛ ومن مظاهر الجزمية الفكرية أيضًا «نغمة الحسم»، وهى التعبير

عن وجهات النظر بأسلوب جازم لا مجال فيه للشك ولا احتمال فيه للخطأ. ومن مظاهرها عدم التسامح؛ ورفض الآخر نتيجة النظرة الهلالية التي ينحجب فيها المظهر الكامل للحقيقة؛ والنظر إلى الأمور على أنها بيضاء أو سوداء حيث لا مجال للون الرمادي؛ مع أن الحقيقة كثيرًا ما تقع في حيز هذا اللون. ولعله من العجيب أن يتسم أسلافنا في نهضتهم الحضارية الكبرى بتسامحهم وتقديرهم لآراء غيرهم قرونًا مضت؛ ونعجز في القرن الواحد والعشرين عن ذلك. وللتدليل على تسامح أسلافنا مارواه «الشريف الجرجاني» في كتابه الشهير «التعريفات» عن تفريق المشايخ بين المجتهدين والمعتقدات يقولون: «الحق ما عليه نحن والباطل ما عليه خصومنا» وفي المجتهدين يقولون: «مذهبنا صواب يحتمل الخطأ ومذهب من خالفنا خطأ يحتمل الصواب». وشبهه بما ذكر من انعدام التسامح ورفض الآخر التصحيحات الباطلة التي لا تستند إلى حجة؛ وليس لها ما يدعمها إلا تجارب محدودة العدد لا تكفى للحكم على شيء من جنس أو نوع أو شعب أو نحو ذلك. فاليابانيون أذكاء والصينيون حكماء؛ .. إلخ. ويبدو هذا المظهر واضحًا في مجال اللغة العربية حيث نجد المدرس والباحث من ذوى الرأى الواحد الذين لا يرون الحق إلا معهم؛ ويقللون من آراء الآخرين؛ ولا يتسامحون مع كل من يخالفهم؛ وهو الأمر الذى أدى إلى ندرة العمل المؤسسى والجماعى الذى تعتمد عليه الدول المتقدمة عادة؛ وتبنى عليه الآمال فى بناء الأساس العلمى لوضع خطط تطوير مناهج التعليم والتطوير الحضارى للأجيال الجديدة. يقول أحد المستشرقين؛ إن موافقتك رأى العربى بنسبة ٩٨٪ يعنى أنك عدوه؛ وإذا كان فى هذا شيء من المبالغة؛ فإنه من الواضح الذى يصعب إنكاره أن النقد فى مجتمعاتنا سبب قوى للاستعداد؛ فهناك مسلك شائع لربط الفكرة بمن يحملها بحيث يفسر الاعتراض عليها بأنه عداا سافر؛ أو هو فى أحسن الأحوال تحامل على صاحبها. ولا تشك أن سمة الرفض للنقد قد تركت أثرًا سلبيًا بليغًا على تطور العقلية العربية، لقد أدت هذه السمة إلى نفشى النفاق والمجاملة المقيتة وجعلهم بديلاً مهمًا للنقد البناء مما يسهم فى أزمة تطور العقلية. كما أدى النزوع إلى عدم تقبل النقد إلى غياب المراجعة الجادة للواقع اللغوى؛ والرفض الصارخ للنقد الذاتى، والنزوع - بدلاً من ذلك - إلى إلقاء اللوم فى الأزمات على عوامل خارجية كالاستعمار والماسونية، وربما الجن والشياطين وغيرهم.

٢. عاطفية التفكير:

ترتبط هذه الظاهرة بعدم النضج وغلبة الخصائص الطفولية فى البشر، وهى سمة نسبية قلما يخلو منها إنسان، ولكنها تصبح خطرة إذا غلبت على شخصية على نحو مرضي، ويتفرع عن

عاطفية التفكير ما يسمى بالآنية والارتجال. ومن مظاهر الآنية والارتجال أن أفعالنا وأحكامنا غالبًا ما تكون ردودًا على أفعال وليس مبادرات، وهو ما يؤدي إلى انعدام الدقة في الحكم والاستعجال في العمل، والفوضى، وغياب التخطيط الواعي. والخلل هنا ليس في وجود ردود على أفعال بعينها، فهذا أمر شائع في كل الأمم، ولكن الخلل يبدو في غياب استراتيجيات عمل بعيد المدى وانعدام سياقات عامة مقاصدية بحيث تكون ردود الأفعال جزءًا مكملًا للقرارات والأحكام المؤقتة على نحو تكون فيه جميع هذه الجزئيات كلًا متناسقًا ومنسجمًا بعيدًا عن التناقض والتنافر.

وهكذا فإن الآنية والارتجال من العادات المستحكمة في الإنسان نتيجة تعوده على الاعتماد على الغير، ومن سمات صاحب هذه العادة أنه يفقد القدرة على المبادرة الذاتية وتصبح أفعاله مجرد استجابات تلقائية لا يوجهها تفكير ولا تحكمها إرادة حرة عازمة، والأشخاص الذين يعتادون على ردود الفعل التلقائي يعانون من العجز عن التفكير والاختيار، ويصبحون ضحايا الظروف والممارسات الخارجية ويعجزون عن ضبط انفعالاتهم، ويلومون الآخرون فيما يواجهون من مشكلات، ويعمون عن مسارات الأحداث ومصادر التأثير، ويهرعون إلى الغير طالبين النجدة والمشورة، ويجعلون من أنفسهم صيدًا للطامعين وغنيمة للمستغلين. وقد فسرت هذه الظاهرة بأنها نتيجة للتنشئة الأسرية المتواكلة، والتربية التلقينية الخاطئة، ونظم الإدارة السلطوية، ونظم الحكم الظالمة.

يتفرع أيضًا عن عاطفية التفكير اتباع الهوى، ويعد اتباع الهوى؛ لما له من نتائج سلبية في غياب العدل والأمانة، من أهم أسباب تخلف الأمة، بل إن القرآن الكريم يصرح بأن اتباع الهوى سبب لفساد الكون، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١]، ويشبه متبعي الأهواء بالأنعام من شدة جهلهم، يقول تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ مَسِيلًا ۝٤٤﴾ [الفرقان ٤٣ - ٤٤]، ويرى المفكر جودت سعيد أن الجاهل بتاريخ تطور المعرفة «هو الذي يمكن أن يتخذ إلهه هواه». وأن تاريخ المعرفة «هو الشفاء من أن يتخذ الإنسان إلهه هواه» ومن مظاهر اتباع الهوى التعصب للقبيلة وللبلد والأقارب وللأحباب (وهنا ينبغي أن نفرق بين الولاء في معناه الإيجابي، والتعصب بمعناه السلبي) والتعصب هو سمة من سمات المجتمع الجاهلي الذي شاع فيه هذا الحديث «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»، ونظرًا إلى خطورة هذه الظاهرة، فقد حرمها الإسلام، ورسخ في المسلمين الأوائل

قيم العدل، والرجوع إلى الحق، «حتى أصبح ذوق المسلم العربي لا يسيع ذلك المثل العربي السائر، ولما قال النبي - ﷺ - مرة: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» لم يملك نفسه، فقال: «يا رسول الله إذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال: تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه».

وقد آل تفشي التعصب، واتباع الأهواء في كثير من المجتمعات العربية المعاصرة إلى انتشار أمراض اجتماعية خطيرة أشدها فتكاً المحسوبية، وتقريب أهل الثقة بدل أهل الخبرة، الأمر الذي حال دون وضع الشخص المناسب في المكان المناسب، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من آثار سلبية على أصعدة مختلفة أهمها الصعيد الاقتصادي؛ فالمؤسسات والشركات ودوائر الدولة والإدارات المختلفة تتحمل خسائر باهظة نتيجة اختيار المقربين على حساب اختيار الخبراء في عمليات التوظيف وتوزيع المناصب. وفي كثير من الأحيان يغيب عن أصحاب الأهواء أن الخسائر المترتبة على أخطائهم المذكورة لا تقتصر على ما يتحملة المجتمع من آثار؛ بل إنهم يخسرون أيضاً على المستوى الفردي؛ يقول عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في رسالة إلى سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ولا تخص بها أحداً بهوى؛ فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حاييت به أهل خاصتك» ويقول الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين: «كل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده»؛ ويحتج بقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]؛ وقوله - ﷺ -: «أبغض إله عبد في الأرض عند الله تعالى هو الهوى» ويرى بعض العلماء أن من يتبع هواه في سلوكه وتصرفاته ولا يخضعها لحكم العقل ينبغي أن يحجر عليه فيما يقوم به من عمل. وقد ترسخ في العقل العربي التعصب إلى الحد الذي نرى فيه الواحد منا يحاول أن يجابى خاصته بكل الطرق، حتى إنه لو كلف بتوزيع أوراق بيضاء متائلة تماماً على عدد من الناس لنظر فيها بدقة وقلبها على أوجهها عله يجد في بعضها ميزات يخص بها بعض الناس على الآخرين. وقد أدرك العلامة ابن تيمية أهمية العدل وقيمه في تحقيق النصر حين ذهب إلى القول بأن الله ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة؛ يقول: «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة؛ ويقال الدنيا تدوم مع العدل والكفر؛ ولا تدوم مع الظلم والإسلام». وهو مانراه متحققاً بالفعل على أرض الواقع؛ واشتهر عن ابن خلدون ربط التخلف الذي يسميه «فساد العمران» بالظلم. وإنه لمن الغريب أن يشيع الظلم بيننا، وقد أمرنا الله أن ننصف أعداءنا قبل أصدقائنا؛ يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

أثر الشعر العربى فى العقلية العربية: (عاطفية التفكير)

يؤدى تدريس الشعر وظيفة جمالية مهمة؛ هدفها تنمية أذواق الناس؛ والارتقاء بفلسفتهم الجمالية؛ غير أنه من المهم أن نتنبه إلى الأثر السلبي الذي قد يؤثر في تفكير الأشخاص العاديين والطلاب في المدارس عندما نبالغ في إلصاق سمة «الشعرية» باستخدامنا للغة؛ بحيث يصبح التنميق؛ والزخرفة والمبالغة؛ والعاطفة؛ ونحوها سمات متأصلة في اللغة وملزمة لاستعمالاتها. وإذا كانت البلاغة قد سميت بهذا الاسم؛ لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه؛ فذلك يعنى أن الدقة؛ والوضوح في التعبير؛ ومراعاة مقتضى الحال؛ هي السمات المهمة التي يتحقق بها نجاح التخاطب؛ الذي يقاس بإدراك مراد المتكلم. وأما المبالغات؛ والعواطف الجياشة؛ والخيال العذب؛ والمحسنات البديعية؛ فينبغى أن تقصر على مجالات الأدب؛ أولاً تمتد لتشمل الاستخدامات الوظيفية والعلمية. ولعل من الآثار السيئة التي تركها التفكير الشعري ميل الناس إلى استخدام عبارات مثل «القائد الأعلى» و«أبطالنا الأشاوس»؛ و«الشعب البطل» و«عماق الثورة»؛ و«المارد الجبار»؛ ونحوها من الألفاظ التي تتسم بالإنشائية؛ وعدم الدقة. إن التفكير الشعري «يقتل التفكير العلمي»؛ ويظهر ذلك في غياب النزعة العلمية في المجتمعات العربية منذ أقدم السنين؛ فلقد ظل الإنسان العربي هائماً مخموراً بالصورة الشعرية وهو يزرع الأرض العربية جيئةً وذهاباً آلاف السنين بينما ينسج الشعر على عينيه وعقله غشاوة منعتة من ملاحظة الثروات الهائلة في باطن الأرض وظاهرها.

وربما كان من أسوأ ما تركه التفكير الشعري في سلوك العرب تفشى عبارات المديح والإطراء والفخر والعصبية التي ورثناها عن الشعراء عبر التاريخ؛ ورسخها فينا تألف التفكير الشعري مع نزعتنا إلى التعلق بالأشخاص؛ وتقديسهم؛ كما سأوضح لاحقاً. وينبغى أن أوضح أن الشعراء الذين قال عنهم تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] وهو الشعر الذي وصفه القرطبي في تفسيره هذه الآية بقوله: «وأما الشعر المذموم الذي لا يحل سماعه وصاحبه ملوم؛ فهو المتكلم بالباطل حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة؛ وأشجعهم على حاتم؛ وأن يبهتوا البريء؛ ويفسقوا التقى؛ وأن يفرطوا في القول بما لم يفعله المرء رغبة في تسلية النفس وتحسين القول».

٣. التفكير المتحور حول الذات:

أ. الانتهازية والاستغلال:

يرى كثير من الناس في المجتمعات العربية، أن الحياة فرص ينبغى استغلالها ويسود

بينهم الاعتقاد بأن العلاقات مع الآخرين يحكمها صراع يوجب على كل طرف بضرورة حسمه لصالحه. وقد ترتب على ذلك أن من يحصل على منصب سياسى أو اقتصادى أو موقع اجتماعى أو إعلامى أو تربوى فلا بد له من أن يستغله لصالحه إلى أقصى حد ممكن. وعادة ما يرفع الانتهازيون شعار «اربح ويخسر الآخرون»؛ الذى يعكس اتجاهها نفسياً عقلياً ينطلق من التنافس والتحاسد؛ وينظر للحياة كميدان سباق لا يربح فيه أحد إلا على حساب الآخر. وإذا تسلم القيادة من يفكر بهذه العادة فسيكون متسلطاً دكتاتوراً لا يتعاون مع أحد ولا يأمنه أحد. وكما ضربت الأنانية والانتهازية أهل السياسة وأهل الحكم فى مجتمعنا العربى؛ فقد ضربت أيضاً مراكز البحث العلمى والجامعات، والتى من المفترض أن تقود أى مجتمع إلى التقدم والرقى. إن الدوافع البحثية عند بعض الباحثين فى الأوساط الأكاديمية العربية تكون بغاية الحصول على الترقية وتحسين السير الذاتية والرغبة فى الحصول على المال والمنافع المادية؛ والجوائز النقدية؛ وليس بتطوير المادة العلمية ومناهجها وطرائق تدريسها إن أكثر ما تقوم به أساتذة الجامعات من بحوث ينصرف لأغراض نفعية قصيرة المدى تتصل بترقياتهم الأكاديمية؛ ولا يستفيد منها المجتمع فى دفع عجلة التنمية أو فى المشاركة العالمية الجادة على أساس ندى؛ كما يمكننا أن نرى آثار الأنانية فى الغاية من تنظيم المؤتمرات؛ يفرض الدعاية للمؤسسات التجارية؛ أو إثبات الذات وإظهار الإنجاز والإنتاج. إن العلم فى المجتمعات العربية لم يصبح رسالة مقدسة كما كان؛ بل اقتصر الأمر غالباً على اعتبار تلك الأعمال وسيلة من وسائل العيش. إن هذا الواقع المحزن فى حياة الأكاديميين العملية التى يعيشونها فى ضوء ظروف جامعية تسود فيها «الأحكام العرفية والجهالة والتبلىد والتخلف التام» إلى أن أصبحت حياتهم خالية من كل معنى؛ وتحولت قصارى آمالهم إلى تكثيف الجهود؛ من أجل مطلق العيش وحماية الرغبة فى الوجود وفى البقاء، أو فى نشدان السلطة بأشكالها المختلفة.

ب. الاستبداد:

تعد هذه السمة نتيجة تراكمية لكل ما ذكر؛ كما أنها مظهر مجسد له؛ إذ تركز على نعمة الحسم فى تقييم الأمور، وعدم تقبل النقد، والأنية والارتجال، واتباع الهوى والعواطف، والانتهازية والاستغلال، ولا يكاد يوجد مستبد لا يتسم سلوكه بهذه الصفات. إن الاستبداد وضعه بعض المفكرين على رأس قائمة ما سموه بالقيم المضادة للحياة والتقدم.

وتتلخص مشكلة الاستبداد فى أن المستبد يرى تناقضاً بين مصالحه الشخصية المحكومة بأنانية مفرطة، والمصالح العامة التى تشيع فهمه؛ ولذا يحرص على أن تكون كل أمور المجتمع

متمحورة حول شخصيته؛ فهو الذى تدور لأجله عجلة الحياة؛ فلأجله يتعب الفلاح؛ ويشغل التاجر؛ ويجهده الصانع؛ ويؤلف المؤلف؛ وينظم الشاعر؛ ولأجله تلد الأمهات وفى سبيله يموت الرجال؛ وتقاتل الجيوش. ويقصر كثير من الناس مفهوم الاستبداد على الحاكم مع أن بعض الحكّام - وربما أكثرهم - هم أقل استبدادًا من أغلب الناس. ويدولى أنه ليس ثمة صفة إنسانية أضرت بالإنسان عمومًا وبالعرب خصوصًا كهذه الصيغة؛ إذ ترتب عليها من الخسائر الاجتماعية والسياسية ما لا يمكن تعويضه؛ وذلك بسبب ما ينشأ عنها من اتخاذ قرارات إستراتيجية وإجرائية غير سلمية تحدث ضررًا كبيرًا بالشركة أو المؤسسة أو الإدارة أو الدولة التى تغيب قيم الشورى والديمقراطية والشعبية. وقد عزا الكثير من المحللين ضياع مصالح شعوب العالم الثالث فى التنمية والتعليم والصحة والسكن والعمل إلى الاستبداد؛ كما عزا ابن خلدون سقوط البرامكة إلى هذه السمة المدمرة.

٤- التواكل الفكرى

التواكل الفكرى هو نوع من الكسل العقلى، مقترنًا بنهج تسويقى يرمى إلى تعطيل النفس من التعامل مع مشكلة ما. ومن مظاهر التواكل الفكرى ما أنقله هنا عن د. محمد يونس على، فى دراسته الشيقة عن أزمة اللغة ومشكلة التخلف فى بنية العقل العربى المعاصر:

الاستسلام للتفكير التأمري

ما أسهل على العربى أن يحل جميع مشكلات العالم؛ وهو يحتسى فنجانًا من قهوة؛ وربما قبل أن يرتد إليه طرفه؛ فبلحظة من الإلهام الذى لا يكاد يحظى؛ يستطيع كثير من الناس أن يتجاوز النظر إلى ظواهر الأمور ويتعمق فى نيات الناس؛ وفى غياهب الغيبات ليدرك بثقة كاملة أن المسألة قيد الدراسة أو النقاش لا تعدو أن تكون أو ناشئة عن محض مؤامرة يقوم بها أعداء الأمة أو الجن أو قوة أخرى خفية لا نعرفها (كالماسونية ونحوها)؛ ولا يمكن أن تكون ناشئة عن أخطائنا أو تقصرنا أو سوء سلوكنا ولا يقتصر هذا التفكير التأمري على القضايا السياسية والاجتماعية العامة بل تشمل أيضًا مشكلات العمل والأسرة والعلاقة بالآخرين إجمالًا. إن المصاب بهذا النوع من التفكير يشبه طبييًا يعزو جميع الأمراض التى يشكو منها مرضاه إلى قوى شريرة تتحكم فى أجسادهم؛ وهو بذلك يريح نفسه من عناء استخدام السماع؛ وقياس الحرارة والضغط والسكر؛ والتفكير فى الاحتمالات الطبية الممكنة للمرض، وينبغى ألا يفهم أننا ننفى وقوع التآمر على المستوى الاجتماعى أو السياسى والدولى؛ فالتاريخ والتجارة تشهد

بوقوع ذلك؛ ولكن الخطر كل الخطر أن نحاول استخدام التفكير التأمري في حل أية مشكلة أو تشخيصها؛ فهو وسيلة تهرب تسويقية؛ وليس أداة حل أى مشكلة. إن الدين الإسلامى يدعونا إلى ربط المسببات بأسبابها؛ وإلى التأمل فى الظواهر الكونية والإنسانية واكتشاف قوانينها. هو بذلك ينهانا كما كان سائداً من اعتقادات خرافية تربط الوقائع والأحداث بأمور خفية؛ كما هو مشهور فى قصة خسوف القمر عند موت إبراهيم ابن الرسول (ﷺ) حيث نهينا عن الربط بين الحدثين، ونظرًا إلى أن التفكير التأمري لا يستند عادةً إلى منطق أو برهان أو ربط بين أمور يمكن التدليل عليها؛ يشبه إلى حد كبير تلك الاعتقادات الخرافية التى كان يقول بها البدائيون من الأمم. إن التفكير التأمري دليل على الروح الانهزامية؛ وعدم الثقة فى النفس؛ وضعف الإرادة؛ وفقر العزم؛ ومن مخاطر هذه الانهزامية النفسية أنها تقضى على معنويات الأمة؛ وتهيئتها للاستسلام للمستعمر؛ يقول شكيب أرسلان: «وهكذا أصبح المسلمون فى العصور الأخيرة يعتقدون أنه ما من صراع بين المسلم والأوروبى إلا سيتهى بمصرع المسلم ولوطال كفاحه». وقد شجع هذا الموقف الانهزامى الاستسلامى العقل الاستعمارى على المضى فى التخطيط لتحقيق مصالحه فى العالمين العربى والإسلامى خلال القرنين الماضيين؛ وليس لنا من سبيل إلى التخلص منه إلا باستعادة ثقتنا فى أنفسنا من خلال التفكير العلمى؛ والوعى بالذات متمسكين فى ذلك بثوابت العقل؛ وقد نقل عن بعض المصلحين قوله: «أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم».

الاستسلام للواقع وعدم التضحية

فالخطأ والتقصير دائماً منسوبان إلى الآخرين: حتى انعكس ذلك فى طريقتنا فى التعبير اللغوى؛ فبينما يقول الطالب الإنجليزى عند تأخره عن حضور الدرس مثلاً: «I missed the bus» ناسباً الخطأ إليه؛ يقول الطالب العربى: «لقد فاتنى الباص» ناسباً الخلل إلى الباص. ولعل من أشهر التبريرات التى تتعلل بها الاحتجاج بالقضاء والقدر؛ وهو أمر شائع إلى الحد الذى يوفر علينا مؤونة الإشارة إليها؛ مع أن القرآن الكريم يعلمنا أن نعزو الأخطاء إلى أنفسنا؛ ونعترف بذنوبنا؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]؛ ويقول أيضاً: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْنَا إِنَّ هَذَا أَقْلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] لعل من أهم أسباب تقدم الأمم قوة الإرادة؛ وشدة العزم؛ والاستعداد للتضحية، وبذل الجهد فى سبيل ما يؤمنون به؛ وما يرون أنه يحقق لهم أهدافهم؛ وإذا كان الأمر كذلك فإن مداهنة الناس؛ والاستسلام للواقع؛ والتعاس؛ وعدم

التضحية من أجل تغييره من أهم أسباب تخلفهم. ولعله من الواضح أن السلوك الاجتماعى عند العرب ينزع فى مجمله إلى مسايرة الواقع وترسيخه وتكريسه؛ وتكاد تختفى المحاولات الجادة لتغييره؛ اتكالاً على مبدأ أن التغيير مكلف؛ وقد يكلف الإنسان فقدان عمله؛ أوربما سجنه؛ أو حتى موته؛ ولذا فالأفضل أن نختار السلامة بتبني موقف محايد؛ أوربما بمناصرة أهل القوة وتحلقهم ومداراتهم لحماية النفس؛ أو للحصول على مستوى معيشى أفضل. ومن العجيب أن نرى فى الغرب كيف تدفع امرأة من جمعية الرفق بالحيوانات حياتها ثمناً لدعوتها إلى توفير نقل مريح للأبقار والأغنام بدلاً من نقلها بشاحنات غير مريحة؛ وأن نتقاعس نحن عن حماية قيمنا وحضارتنا وأمتنا لمجرد خوف متوهم أو طمع مستحکم. لقد حاولت تلك المرأة البريطانية منع إحدى الشاحنات من التحرك بوضع نفسها تحت عجلات شاحنة إلى أن دهست وضربت بذلك مثلاً على التضحية من أجل الآخرين ومن المثالب الخطيرة التى هى سمة الاستسلام الفكرى ما نراه من انقياد للغرب؛ وتهاون فى حماية العربية من منافساتها الإنجليزية والفرنسية والعامة؛ وتقهقر ناشئ عن الإستسلام للغالب؛ الذى فرض علينا لغته وفقاً لقانون فساد لغة المغلوب وهيمنة لغة الغالب؛ علاوة على النزوع إلى الصمت أمام المسئول حين يكون المرء مقتنعاً بخطأ المسار الذى تسير عليه المؤسسة؛ أوفى غيرها من الأمور المتصلة بذلك. ويذكر بعض الباحثين أن الخضوع السلبي للمسئول مثله - فى ذلك مثل المقاومة العدوانية العلنية عادةً ما يكون استجابة شبه طفولية لسلوك سلطوى تقليدى.

عدم المبالاة

هذه الصفة مظاهر مختلفة منها عدم إتقان العمل والاكتفاء من القلادة بما أحاط بالعنق كما يقولون وعدم العناية بالتفاصيل؛ وغياب الدافع الذاتى للقيام بالعمل، وكثيراً ماتكون عدم المبالاة مبعثاً للضعائن والأحقاد بين الزملاء مثلاً قيل فى المثل «علة المعادة قلة المبالاة»؛ لأن الكسل وعدم إتقان العمل يدفع الكسول إلى الغيرة من النشاط من الناس المتقن لعمله؛ والكيد له؛ فيترتب على ذلك ما يترتب من تقاعس وتخلف. كما أن قلة المبالاة توقع صاحبها فى الخطأ فى تقديم المعلومة؛ وعدم الدقة فى تحرى الصواب، غير أن أخطر ما تظهر فيه اللامبالاة عدم تقويم الأمور وفقاً لأهميتها للفرد والمجتمع على المدى البعيد؛ بل بقدر ماتدره من مكاسب شخصية سريعة ومؤقتة، فالطالب العربى يركز كل اهتمامه على الامتحانات وتغيب عنه أهمية التعلم من أجل الحياة؛ والموظف العربى لا يحرص على شىء سوى إرضاء مسئوله؛ أو حصوله على الترقية؛ وهلم جرا. وهكذا تبقى قضية التخلف بعيدة عن مرمى اهتمامنا. ومن شواهد عدم

مبالاة الباحثين والمثقفين العرب بقضايا الأمة ما ذكره أحد الكتاب العرب عندما أشار إلى أن المعهد العالمى للفكر الإسلامى أرسل خمسة آلاف رسالة إلى علماء الإسلاميات والاجتماعيات مع نسخة مرافقة لكل رسالة من كتاب إسلامية المعرفة للتعليق عليه ودراسة الفكرة ثم الرد عليهم بتقديم الخطط والآراء والنظريات؛ فلم يجب منهم بكتابة بحث فى الموضوع إلا ستة وخمسون؛ لم يوافق منها المواصفات المطلوبة غير ثلاثة أبحاث. والملاحظ أن هذا الموقف السلبي من أمثال هذه الدعوة ليس غريباً على مجتمعات مايسمى - تفاقولاً - بالدول النامية؛ إن العزوف عن المشاركة فى الأنشطة العلمية والاجتماعية ونحوها سمة بارزة من السمات المعنوية للمجتمعات المتخلفة. وفى هذا الصدد؛ قال ابن الأثير: فى كتابه الشهير: «المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر»؛ - ولاشك أن قلة المبالاة بالأمر؛ واستشعار القدرة عليه توقع صاحبه فى ما لا يشعر أنه وقع فيه فيجهل بما يكون عالمًا به.

النزعة التقليدية وغياب التفكير الإبداعي

لقد شاعت فى أوساط المجتمعات العربية فكرة المحافظة على القديم لمجرد قدمه، والعزوف عن الجديد لمجرد جديده؛ وتوسعنا كثيراً فى تعميم الحكم على كل بدعة بأنها ضلالة بحيث شملت كل مايتعلق بشئون الحياة مع أنها وردت حصراً فى العبادات التوقيفية التى يقصد بها الامتثال لأمر الله عز وجل، وهكذا طغت علينا صفة الآبائية؛ فعشقنا المألوف وقدسنا ما ألفينا عليه آباءنا فى عصور التخلف؛ وساد الحكم على الأشياء بمعيار الأصالة أو الجدة دون نظر إلى الأشياء فى حد ذاتها؛ وغاب عنا أن الزمن ليس له صلة بالجودة أو الرداءة؛ ولا الجودة مرتبطة بحدائث أو بقديم؛ فالجودة لا ترتبط بالتاريخ (القديم أو الحديث)؛ ولا بالجغرافيا (الشرق أو الغرب) لقد عزا بعض المهتمين وجود نزعة الانحياز السلبي نحو الابتكار فى مجتمع ما «إلى استمرارية المحافظة على أنماط الحياة اليومية واستقرارها لأجيال طويلة «وإلى كون محاولات الابتكار» غير مجزية «علاوة على كونه» نوعاً من المغامرة المشكوكه النتائج «إن النقطة التى تستحق الاهتمام هنا هى أن الفكرة العلمية ينبغى أن تقوم حسب أهميتها؛ وبالنظر فى مدى صحتها بغض النظر عن مصادرها التاريخية والجغرافية؛ فالصحة لا ترتبط بزمان معين أو مكان معين، وبناء على ذلك فإن السؤال الصحيح الذى ينبغى أن يسأل دائماً هو ماذا قيل؟ وليس من قال؟ أو أين قيل؟ أو متى قيل؟ كما هو شائع عند كثير من مصدريها غريباً أو حديثاً ويقبلونها إذا كان مصدرها تراثياً دون نظر فى مدى صحتها ودون فحص لأدلتها.

التفكير الهامشى

أعنى هنا بالتفكير الهامشى؛ ما قاله الكاتب «عبد الكريم بكار» فى كتابه: مدخل إلى التنمية المتكاملة؛ إن التفكير الهامشى هو إشغال فكر الإنسان بقضايا خارجة عن دائرة نفوذه؛ وتأثيره؛ كأن يرمى الكثير من الوقت فى حل مشكلات العالم دون أن ينهج فى ذلك نهجاً علمياً؛ ودون أن يكون له من المؤهلات والقدرات التى تمكنه من أن يخوض فى ذلك؛ أو أن يضيع الوقت فى النقاشات البيزنطية العقيمة أو الصراعات التاريخية السالفة. والميل إلى التفكير الهامشى إنما هو نوع من التعويض عن الكسل؛ والتعاضد عن الواجبات المناطة به؛ ومحاولة إقناع النفس بالانشغال بقضايا الأمة؛ وتاريخها؛ ونحو ذلك من الأمور؛ وعلى الرغم من إدراكنا أن الله لا يحاسبنا على ما لا طاقة لنا به؛ فإن الكثير من الوقت يضيع فى إعمال عقولنا فى أمور تخرج عن ممتلكاتنا؛ وواجباتنا؛ وعاداتنا وأحوالنا؛ ونحو ذلك مما يدخل فى إطار نفوذنا.

سطحية التفكير

يطلق قصر النظر على كل تقويم لعمل ما يقتصر فيه على مردوده الآنى؛ أو ما يترتب عليه فى المستقبل الدانى؛ وهو أمر يؤدى بصاحبه إلى التخطيط والجور على من هو دونه حين يجبره على إنجاز ما قصر هو فيه؛ ويبدو هذا واضحاً فى المؤسسات التى يغيب عنها التخطيط المستقبلى؛ وتضطر إدارتها إلى إرغام موظفيها على القيام بأعمال لا يمنحون فيها الوقت الكافى لإنجازها فيترب على ذلك رداءة الأداء وتفاهة النتائج. وما قيل عن المستوى الإدارى ينطبق على المستوى الفردى والأسرى والاجتماعى. إن غياب العمق الفكرى فى العقلية العربية تعنى غياب الطابع التجريدى فى البحوث والأعمال؛ وعدم العناية بالتفاصيل؛ والاقتصار على ما هو مألوف أو ما يسهل الوصول إليه والنظرة الشمولية للموضوع؛ والعجز عن التنظير والجهل بطبيعة المعرفة البشرية؛ وأصولها. وفى النهاية فإن الناظر فى كل ما سبق استعراضه فى أسباب تخلف العقلية العربية ليلحظ إن كل السمات المذكورة هى أقرب لأن تكون صفات طفولية وعدم نضوج فكرى يتمحور حول الأنا وتحكمها الاتكالية والاستسلام والعاطفة؛ وربما دل هذا على أن الشعوب المتسمة بها تنضج بعد؛ إن الحل كما أتصور بفكرى ورأى المتواضع يكمن فى الدفع بالأجيال الجديدة وعامة الشعوب العربية والإسلامية إلى أن تبلغ سن الرشد وتنضج فكرياً؛ ويكون مشروع التحديث الفكرى والحضارى هو أساس النضوج لهذه الأجيال الجديدة؛ ويكون أيضاً بتخليصها من السمات الطفولية المذكورة سابقاً. ولا ينبغى أن يفهم

من هذا أن ما هو سائد في مجتمعاتنا العربية من قيم وآداب وتعاليم دينية مندرجة فيما أشرنا إليه. بل كل ما أعنيه هو طرائق التفكير وأساليب التصرف السائدة في المجتمع التي تصدر عن أهواء النفوس؛ وتحكمها العقول المتسمة بالصفات المذكورة؛ وليس السلوك المحكوم بالدين أو الأخلاق المحكومة بالأعراف الأصيلة بداخل فيما ذكرنا بأى وجه من الوجوه، واهتم هذا الفصل باستعراض تاريخي لبعض الكتاب والمحللين على مدى التاريخ البشرى في وصف العقلية العربية، وذلك نقلاً عن الكاتب عادل الصاوى في مقالته: وصف العقلية العربية: لكل أمة من أمم الأرض خصائص وصفات تشكل جماع عقليتها؛ وتتجلى في تفكيرها ومنطقها ونفسياتها وعاداتها وآدابها وفنونها؛ ولكم تبارى الكتاب والمحللون على مدى التاريخ البشرى في وصف عقلية هذه الأمة أو تلك بشتى الأوصاف؛ وكان للعقلية العربية النصيب الأوفى من جهود أولئك الكتاب والمحللين والمولعين بتحليل الشخصيات والنفسيات؛ وهذه مجموعة من مقولات مختلفة تشخص العقلية العربية القديمة:

١ - نسبت بعض كتب التاريخ القديم لملك الفرس كسرى أنو شروان كلاماً توجه به إلى ملك الحيرة النعمان بن المنذر؛ افتخر فيه بعقلية قومه؛ وفي نفس الوقت ذم العقلية العربية؛ إذ نعتها بعدد من الصفات السلبية من بينها. ضعف الهممة والغدور واللعب بالكلام والكسل والجبن والغرور؛ فقال: «همتهم ضعيفة؛ بدليل سكنهم في بواد قفراء؛ ورضائهم بالعيش البسيط والقوت الشحيح؛ يقتلون أولادهم من الفاقة؛ ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة. أفضل طعامهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها؛ وإن قرى أحدهم ضيافاً عدها مكرمة؛ وإن أطعم أكلة عدها غنيمة تنطق بذلك أشعارهم؛ وفتخر بذلك رجالهم؛ ثم إنهم مع قلتهم وفاقتهم وبؤس حالهم؛ يفتخرون بأنفسهم؛ ويتطاولون على غيرهم؛ وينزلون أنفسهم فوق مراتب الناس حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين؛ وأبوا الانقياد لرجل واحد منهم يوحدهم ويجمعهم. إذا عاهد والغير وافين؛ سلاحهم كلامهم؛ به يتفننون وبكلامهم يتلاعبون؛ ليس لهم ميل إلى صنعة أو عمل ولا فن؛ لا صبر لهم؛ إذا حاربوا ووجدوا قوة أمامهم حاولوا جهدهم التغلب عليها؛ أما إذا وجدوها قوة منظمة هربوا مشتين متبعثرين شراذم؛ يخضعون لحكم الغريب ويها بونه، يأخذون برأيه فيهم؛ ما دام قوياً؛ ويقبلون لمن ينصبه عليهم؛ ولا يقبلون بحكم واحد منهم؛ إذا أراد أن يفرض سلطانه عليهم».

٢ - توقف الجاحظ عند عفوية وبساطة العربى في تفكيره ومنطقه وكلامه فقال: «وكل شئ عند العرب فإنما هو بديهية وارتجال؛ وكأنه إلهام؛ وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إطالة

فكر ولا استعانة؛ فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب؛ وإلى العمود؛ الذى يقصد؛ فتأثيه المعانى إرسالاً؛ وتثال الألفاظ انثيالاً. ليس هو كمن حفظ علم غيره؛ واحتذى على كلام من كان قبله؛ لم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم؛ والتحم بصدورهم؛ واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب».

٣ - أشار ابن خلدون فى مقدمته إلى صعوبة قيادة العرب فقال: «وهم متنافسون فى الرياسة؛ وقل أن يسلم واحد منهم الأمر لغيره؛ ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا فى الأقل؛ فيقدر الحكام منهم والأمراء؛ وهم أصعب الأمم انقياداً وبعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة فى الرياسة؛ فقلما تجتمع أهواؤهم».

٤ - ونقل أحمد أمين فى كتابه (فجر الإسلام) عن المستشرق الأب «لامانسى» قوله عن مفهوم العربى للحرية فقال: «إن العربى نموذج الديمقراطية؛ ولكنها ديمقراطية مبالغ فيها إلى حد بعيد؛ وإن ثورته على كل سلطة تحاول أن تحد من حرية ولو كانت فى مصلحته؛ وهى السر الذى يفسر لنا سلسلة الجرائم والخianات التى شغلت أكبر جزء من تاريخ العرب؛ وجهل هذا السر هو الذى قاد الأوروبيين فى أيامنا هذه إلى كثير من الأخطاء وحملهم من الضحايا التى كان يمكنهم الاستغناء عنها؛ وصعوبة قيادة العرب وعدم خضوعهم للسلطة التى تحول بينهم وبين السير فى سبيل الحضارة الغربية. ويبلغ حب العربى لحرية مبلعاً كبيراً؛ حتى إذا حاولت أن تحدّها أو تنقص من أطرافها هاج كأنه وحش فى قفص؛ وثار ثورة جنونية لتحطيم أغلاله والعودة إلى حرية؛ ولكن العربى من ناحية أخرى مخلص مطيع لتقاليد قبيلته؛ كريم يؤدى واجب الضيافة والمخالفة فى الحروب؛ كما يؤدى واجبات الصداقة مخلصاً فى أدائها حسب ما رسمه العرف».

٥ - أشار أحمد أمين إلى ذكاء العربى فقال: «العربى عصبى المزاج؛ سريع الغضب؛ يهيج للشىء التافه ثم لا يقف فى هياجه عند حد؛ المزاج العصبى يستتبع عادة ذكاء؛ وفى الحق أن العربى ذكى؛ يظهر ذكاؤه فى لفته؛ فكثيراً ما يعتمد على اللمحة الدالة والإشارة البعيدة؛ كما يظهر فى حضور بديته؛ فما هو إلا أن يفاجأ بالأمر فيفاجئك بحسن الجواب؛ ولكن ليس ذكاؤه من النوع الخالق المبتكر؛ فهو يقلب المعنى الواحد على أشكال متعددة؛ فيبهرك تفننه فى القول أكثر مما يبهرك ابتكاره للمعنى؛ وإن شئت فقل إن لسانه أمهر من عقله؛ وحياة خيراً من حياة يسعى وراءها؛ لذلك لم يعرف (المثل الأعلى)؛ لأنه وليد الخيال؛ ولم يضع له فى لفته كلمة واحدة دالة عليه؛ ولم يشر إليه فيما نعرف من قوله؛ وقلما يسبح خياله الشعرى فى عالم

جديد يستقى منه معنى جديدًا؛ ولكنه في دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل مذهب. أما ناحيتهم الخلقية فميل إلى الحرية قل أن يجدها حد؛ ولكن الذى فهموه من الحرية هى الحرية الشخصية لا الاجتماعية؛ فهم لا يدينون بالطاعة لرئيس ولا حاكم؛ تاريخهم فى الجاهلية وحتى فى الإسلام سلسلة حروب داخلية؛ وعهد عمر بن الخطاب كان عصرهم الذهبى؛ لأنه شغلهم عن حروبهم الداخلية لحروب خارجية؛ ولأنه منح فهماً عميقاً ممتازاً لنفسية العرب.

٦ - فى بحث بعنوان «الخلاف السياسى فى فجر الإسلام»؛ نعت الباحث الدكتور عبد اللطيف البرغوثى؛ العربى الجاهلى بالأنانية المفرطة؛ وتوقف عند ظاهرة الفردية؛ فقال «العربى الجاهلى فردى مفرط فى فرديته؛ وفرديته هذه فردية مصلحة ولا تقل قسوة وعنفاً عن قسوة بيئته الطبيعية وعنفاً؛ لكن هل كانت هذه الفردية المصلحية المفرطة تتناقض فى جوهرها مع ما اتصف به وتغنى به ومارسه من كرم مفرط؟ لقد رأى الباحث أنه لا يستطيع أن يرى مثل ذلك التناقض؛ بل يذهب إلى أبعد من ذلك؛ فرد صفة الكرم إلى نفس منبع تلك الفردية ألا وهى المحافظة على الحياة فى مضمار تنازع البقاء؛ فقد وجد العربى وبالتجربة المؤلمة المريعة أن بيئته فرضت عليه حياة الرحيل والتنقل طلباً للماء والعشب، ومن أجل الصيد والغزو؛ ووجد أنه فى تنقله فى أرجاء صحرائه القاحلة كان عرضةً للموت جوعاً أو عطشاً أو ضياعاً ألف مرة ومرة وفى كل سفرة يقوم بها؛ ولما كان يبحث فى أسفاره عن أسباب الحياة وليس أسباب الموت فإنه يتيقن أن نجاته من الموت عبر صحائره التى أسماها مفازة من باب التفاؤل باجتيازها حياً، لا يمكن أن تكون إلا على يد إنسان آخر، يقدم له الزاد إن جاع والماء إن ظمئ، وفى سبيل أن يجد الراحة والماء والزاد لدى المنقذ المنتظر أو جب على نفسه أن يسلك سلوك المنقذ فى أيام استقراره حتى يلقي مثل تلك المعاملة أيام سفره وترحاله، ومع مرور الأيام تطورت نواة كرمه هذه حتى أصبحت قيمة اجتماعية متحركة فى حياته وعرفاً راسخاً يلقي من يخرج عليه ما يلقيه الخارج عن القانون».

وخلص الدكتور البرغوثى إلى أن تعاليم الإسلام التى حث العربى على نبذ العصبية القبلية والأنانية المفرطة لم تتمكن من تهذيب عقليته، فظل سامراً فى عينه، إذ به... وفاة النبي محمد (ﷺ) ارتد أكثر العرب عن الإسلام، وعادوا إلى حياة التشرذم والفرقة والتعصب القبلي الميت والتنازع على الرئاسة.

هل تختلف عقلية العرب في عصرنا هذا عن عقلية عرب العصور القديمة، أم لا يزال كثير من العرب يحملون الخصائص السلبية لعقلية أجدادهم الأوائل؟ سوف أهتم هنا بهذه الإجابة التي يؤكد فيها الدكتور محمد عابد الجابري في مؤلفه (تكوين العقل العربي). أن العقلية السائدة على تفكير وأحاسيس عرب اليوم هي عقلية الأعرابي، وهي عقلية تفتقر إلى عمق في التفكير والفلسفة، ويرى أن من الخطأ أن يظل العقل العربي مشدوداً إلى حضارة وثقافة اليد والرجل، وهي ثقافة فرضت على العقل العربي طريقة معينة في الحكم على الأشياء والتعامل معها، قوامها الحكم على الجديد بمقياس قديم.

* * *